

الفصل الرابع الفكاهة فى شعر حافظ إبراهيم

كان حافظ فى جلساته بين أصدقائه خفيف الظل، عذب الحديث، رائع النكتة حتى عرف بدعاباته ونكته ، وله فى ذلك المجال إنتاج كبير شعرا ونثرا حيث منحته الطبيعة قدرة فائقة على الفكاهة الحلوة والنوادر المستملحة، فبالرغم من حالة البؤس التى كان يعيشها ورغم الخوف والقلق الذى كان يحياه فقد كان يقضى معظم وقته فى المقاهى والمنتديات حيث يضحك ويضحك معه الناس من الأعماق، يسخر من كل شئ ، ويملاً المكان بأساليب الفكاهة الأدبية التى تتميز بالبساطة وخفة الروح، وتحرك نفوس الناس ليضحكوا رغم ما هم فيه من معاناه.

وعلى الرغم من شعوره باليتم والحزن والاكتئاب، فقد كانت روحه تتسم بالحياة المستهينة بقيودها، وكان له ذوق بارع فى اختراع النكتة من كل ما يدور حوله فى جلساته فما أن يسمع حديثاً أو يعرض أمامه شئ حتى يدرك موضع الفكاهة منه فيختطف النادرة من كل لفظ ويرتب الدعابة من أى معنى، فكان يضحك من البؤس ومن الشقاء ومن كل شئ، ويصوغ من ذلك صياغة تستخرج ضحك السامعين من أعماق قلوبهم، حيث يرسل النكتة فيستخرج منها ضحك الشيخ الوقور، والرجل الرزين ، والشاب الصغير ومن العجيب مع هذا أنه قلما نرى للنوادر والنكات فى شعره إلا القليل ومن نوادره ودعاباته ونكاته نذكر أنه كان ذات مرة فى زيارة للشيخ المراعى شيخ الأزهر، ورئيس هيئة العلماء فى داره بحلوان

يتناقش معه فى المسائل الدينية والأدبية وكثيرا ما كان حافظ يداعب الشيخ، وكان الشيخ يتقبل دعابته ويطلبه بالمزيد منها، وحدث أن الشيخ المراعى اشتري خمسة من الديوك الرومى، ولم يكد الصباح يطلع عليها حتى ماتت فارسل حافظ إلى الشيخ رسالة تعزية قال فيها:

رحم الله خمسة من ديوك للمراعى عوجلت بالفناء
قلو أن الأستاذ خير فيها بين موت لها وبين فداء
لافتداها بخمسة من شيوخ من اساطين هيئة العلماء

ومما يحكى عن نواذر حافظ أن سعد زغلول كان على موعد مع الأديب المعروف أمين الرافعى فذهب إليه متأخرا، ولما سأله سعد عن سبب تأخره أخبره أنه حدث له مغص، فشرّب فى الصباح شربة من الملح الانجليزى، وأن الشربة لم تتحرك فى بطنه، وكان حافظ إبراهيم جالسا، فرد على الفور "هم الانجليز يا أمين بك لما يدخلوا حنة يطلعوا منها؟!"

وبهذا جمع حافظ بين النكتة من الانجليز والتهكم عليهم فى وقت واحد فإن كانت النكتة هنا مادة للدعابة والضحك، إلا أنها أكدت حقيقة واقعية، ساقها حافظ ببديهة الحاضرة، كى تصف الانجليز، وتتهكم عليهم، ثم تهزأ من وجودهم، وقد جاءت فى تلقائية مباشرة، أنبثقت من نفس شاعر النيل، حتى صارت مثلا، تتلقفه العامة ويتردد بين الناس.

ومما يروى أن الدكتور محجوب ثابت قد رأى حلما فقصه على سعد زغلول، فأخبره بأن حافظ هو الذى يمكنه تفسيره، خاصة وأنه كان مشهورا بتفسير الأحلام ويعتقد فى الرؤى وأثرها فى حياة الانسان ولما قصه على حافظ بقوله: رأيتنى راكبا بغلة عليها سرج موشى بالذهب،

سائرة بي في حقول خضراء، بينما كان كثير من الحمير تتبعني، فقال له حافظ (البغلة دي كرسيك في مجلس النواب، فسأله محبوب: والحمير اللي كانت ورايه ؟ فقال حافظ دول اللي راح ينتخبوك.

ويحكى أن حافظ كان دائم التندر والسخرية على صديقه إمام العبد وكانت له معه مفاكحات كثيرة تؤكد قوة العلاقة بينهما، وذات مرة كان إمام العبد يملئ شيئا، وحدث أن سقطت نقطة حبر على الورق فقال له حافظ (الحق يا إمام نشف عرقك) ومن المعروف ان اماما كان أسود الوجه، وذات مرة لبس إمام رباطا للرقبة أسود فلما رآه حافظ قال له (زرر القميص يا إمام).

ويتندر حافظ بصديقه إمام وكان يسكن في بيت صغير ضيق "بأن غفير الدرك يشكو كل ليلة من أنه حين يمر بمنزله يتوقف عن المرور وينادى يا إمام رجليك طالعة من الشباك يا أخى مش ضرورى تمام ممدد" وفى أحد الأيام نزلا إلى البحر معا، وعندما خرجا نظر إلى إمام وكان شديد السواد من شدة الشمس، وقال "أنت الان سودانى مملح" ثم رأى سيدة جميلة تسير على الشاطئ فالتقت إلى إمام وأخذ يقبله ، فانزعج إمام وسأله، ما هذا يا حافظ؟ فقال : اقبل الأرض بين يديها".

وذات مرة دخل عليه صديقه " الشيخ عبد العزيز البشرى" وبادره قائلا: " لقد رأيتك من بعيد فتصورتك واحدة ست فرد عليه حافظ والله يظهر أن نظرنا ضعف. أنا كمان شفتك وانت جاي افتكرتك راجل.

وذات مرة كان البشرى وحافظ مدعويين إلى احدى الرحلات ودخل البشرى على حافظ فى غرفة النوم ، وطلب إليه ان يرتدى ملابسه فقال له

حافظ " أنا لسه مغسلتش وشى فرد عليه البشرى وشك مش عاوز غسيل
نفضه كفاية!"

وحدث ذات مرة أن حافظ حضر حفلة موسيقية وكان العزف رديئا
فطلب من قائد الفرقة ان يسمعهم لحنا آخر، فأجاب المايسترو بان اللحن
الذى يعنيه سبق لهم عزفه منذ دقائق، فصاح حافظ على الفور: يا سلام،
على كده يبقى انبسطنا. وخلال الحملة الانجليزية بقيادة كتشنر على
السودان ألحق حافظ بهذه الحملة رغم أنه، وحدث ان عاد ذات مرة إلى
المعسكر متأخرا، فصاح فيه الحارس الانجليزى الذى كان يقف عند بوابة
المعسكر. مين هناك، وكرر النداء أكثر من مرة وارتابك حافظ ولم يدر
ماذا يفعل ثم صاح مجيبا أنا انجليزى يا جورج.

ومما يروى ان حافظ كان يكره شاعرا من شعراء عصره كراهية
شديدة، وكان هذا الشاعر يتولى منصبا مهما يحتاج حافظ إليه، لذلك كان
يبدى له الود وان كان يبغضه فى حقيقة نفسه. سأله هذا الشاعر ذات مرة
عن رأيه فى أعظم شاعر فأجاب حافظ إنه المتنبى فسأله : واعظم ما قاله،
فأجاب:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بد
ومما يذكر من طرائف حافظ أنه رأى رجلا كبير الكرش، فقال له
مداعبا: ما أراك إلا ممن يطلبون المساواة بين المرأة والرجل، فأجابته:
نعم، فقال حافظ: ظاهر لقد حملت عنها حملها" ، "ومر يوما على رجل يبيع
مراوح، فسأله عن ثمنها، فقدم له مروحة، وقال له: هذه بقرش واحد، ثم
قدم له أخرى مثلها وقال له: وتلك بقرشين، ونظر حافظ فى المروحتين

وقلبهما، ولم يجد فرقا بينهما، فقال له: هذه تأتي بهواء بحرى والأخرى تأتي بهواء قبلى!" ، ومما يذكر أنه دعا جماعة من أصحابه إلى طعام، وجاعوا معهم بصديق لهم، لم يكن يعرفه ولاحظ حافظ أنه يكثر من الأكل، فقال له : ترى ماذا كان يكون أمرك لو كنت من المدعويين، هلا ذكرت أنك مدعو من باطن مدعو، ثم قال له : يا أخى إنك تشبه الخزانة التى بها درج سرى!" و "دعى حافظ مع جماعة على طعام، وكان على المائدة ديك رومى صغير لم يعجب حافظ، فقال للمضيف: ما أظن هذا الديك إلا دجاجة نفختها بمنفاخ دراجة، ثم قدمته لنا على أنه ديك رومى".

وكتب حافظ ذات مرة إلى جار له لم يدعُه لحفل زفافه فقال:

| | |
|------------------------|--------------------------|
| وأحمد كيف تتسانى وبينى | وبينك يا أخى صلة الجوار |
| وبيتى فارغ لا شئ فيه | سواى واننى فى البيت عارى |
| وما لى جزمة سوداء حتى | أوافيكم على قرب المزار |
| فإن لم تبعثن إلى حالا | بمائدة على متن البخار |
| تغطيها من الحلوى صنوف | ومن حمل تتبل بالبهار |
| فإنى شاعر يخشى لسانى | وسوف أريك عاقبة احتقارى |

وعلى الرغم من خفة دم حافظ ونكته فقد كان فى قراره نفسه حزينا على نفسه وحزينا على وطنه فقد أجاد الرثاء فى كل منها، فبعد أن تعرض للمرض وعاش وحيدا كتب قائلا:

| | |
|----------------------|---------------------------|
| مرضنا فما عادنا عائد | ولا قيل أين الفتى الألمعى |
| ولا هش طرس إلى كاتب | ولا خف لفظ على مسمعى |

سكتنا فعز علينا السكوت وهان الكلام على المدعى
وإلى جانب ذلك فقد أعلن حافظ ابراهيم عن تبرمه وحزنه الدفين
وسخطه من الحياة التى يعيشها فقال:

عزت السلعة الذليلة حتى بات مسح الحذاء خطبا جساما
وغذا القوت فى يد الناس كاليا قوت حتى نوى الفقير الصياما
ويخال الرغيف فى البعد بدرا ويظن للحموم صيدا حراما
ثم يندب حافظ حظ أبناء وطنه وما هم فيه من ذل وحرمان بينما يعيش
الأجنبى الذى يفد إلى مصر وكأنه المتحكم فى مصائر الأمور فيقول:

بنو مصر فى حمى النيل صرعى يرقبون القضاء عاما فعاما
أيها النيل كيف نمسى عطاشا فى بلاد رويت فيها الأناما
يرد الواغل الغريب فيروى وبنوك الكرام تشكو الأواما
قد شقينا ونحن كرنا للـ ه بعصر يكرم الانعاما

وهكذا يتضح من هذه المواقف التى تتسم بالحيوية والمرح ان حافظ
كان يتندر فى دعابة على ما وصلت إليه الأحوال فكان حزين الروح
مكتئب النفس حيناً، مرحاً يسخر بالحياة ويستهن بها فى دعابة فكهة فى
أحيان أخرى.